صور من التاريخ الإسلامي :

عبد الله بن الزبير

(١ – ٧٣ هـ)

بقلم محمد حسني عبد الرحمن

تتمة ما نشر في العدد الماضي

وقد يكون من الانصاف للحق والتاريخ أن تثبت هنا آراء غيره، ممن عاصروه، في أسباب طلبه هذا الأمر، وانهما كه فيه: يروى المسعودى أن ابن عباس كان يقول «أما والله ماعرفت عبد الله إلا صوّاما قوّاما؛ ولكني مازلت أخاف عليه منذ رأيته تعجبه بغلاتُ معاوية الشهب؛ وكان معاوية قد حجّ فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء، عليها رحائل الأرجوان، فيها الجوارى الحسان، عليهن الثياب المعصفرات، ففتن الناس بموكبه »

وقال ابن الزبير لامرأة عبد الله بن عمر بن الخطاب: إنني لم أخرج ولم أطلب الخلافة إلا غضباً لله وللمسلمين من أثرة معاوية وابنه، فهم يستأثرون بالفىء دون الناس، ويستحلون محارمَ الله. قال هذا وسألها أن ترجو زوجها في مبايعته؛ فلما جاء زوجها ذكرت له ابنَ الزبير وعبادتَه وجهادَه، وأثنت عليه قائلة إنه يدعو إلى طاعة الله عز وجل وأطنبت في مدحه، ثم طلبت من زوجها أن يبايعه ويؤيده، فأجابها ابن عمر «ويحك! أما رأيت البغلات الشهب التي كان يحج عليها معاوية قادماً إلينا من الشام؟ قالت، بلى! قال والله ما يريد ابن الزبير بعبادته غيرهن!!»

فهذان اثنان من أقطاب الرجال في عصره، ومن ذوى الشرف والفضل والنزاهة في المسلمين، يقرّران أنه ما يبغى إلا الدنيا، وأنه يتّخذ من العبادة سلما يرق به إلى قلوب الناس، ليسا لموه على قضاء مأربه في الخلافة

والذى يمكن أن نستنبطه من ظروف الحوادث في ذلك العصر، أن سعيه وراء الخلافة كان مبنياً على طائفة من الأسباب إذا راعيناها جميعاً، أمكن التوفيق بين وجهات النظر المختلفة؛ فقد أراد أن يلىَ أمور المسلمين، ليحقق نزعته ويشبع رغبته، وليعدلَ في المسلمين، فيردّ الأمور إلى حالتها الأولى، ويقيم الأمر بالقسط؛ فكأنه كان يبنى بذلك أمرَىِ الدنيا والآخرة معاً

ومهما يكن الداعى إلى طلبه الخلافة، فإنه كان كفؤاً لها، وقد واتته الفرصة، التي لبث يترقبها زمَناً، بموت يزيد وابنه معاوية الثاني، ولم يبق في السفيانية من يقوى كاهله لقيام بأعباء الخلافة؛ وحينئذ نرى عبد الله يُهمّ بالعمل الجرىء، فهو رجل الساعة، والظروف المهيأة تنتظر منه الوثوب والظهور، وقد كان ذلك؛ إذ دعا لنفسه على منبر الحجاز سنة ٦٤ هـ، ولم تلبث الدعوة الجديدة أن سرت في أنحاء العالم الاسلامي؛ فخطب له على كافة المنابر (بالعراق وخراسان والحجاز والشام) سوى بعض جهات بالشام كان هواها ما زال أموياً

وهنا تقوم عقبة شاقة أمام الخليفة الجديد! فأهل الشام الذين لم يبايعوا قد أخذتهم نعرة العصبية لبلدهم، فيمشى بعضهم إلى بعض، وفيهم الرؤساء والقواد يتشاورون ويقلّبون الأمر على كافة وجوهه، حتى لا يُفلتَ الملكُ من أيديهم، ولا يخرج السلطان من بلدهم؛ ثم يُسفر اجتماعُهم وتشاورهم على أن يبايعوا لمروان، وإن لم يكن سفيانياً فانه أموى؛ وهو بعدُ أرشدُ القوم وأحزمهم وخير من يُسند إليه هذا المنصب من أهل هذا البيت، في مثل تلك الظروف؛ ولكن الضحاك بن قيس ومعه جنده يعارض هذه البيعة بشدة، يريد أن يتم الأمر لابن الزبير، فتقع الحرب بين الفريقين بالشام، وتلوح بشائر النصر للضحاك، فيعمد مروان الداهية إلى الحيلة «كما فعل معاوية مع على سابقاً» ويطلب المدنة، ثم ينقض بجنده على جيش عدوه بغتة، فيشتتهم، ويقتل قائدَهم الضحاكَ (بمرج راهط). وبهذه الهزيمة تنطفئ دعوة ابن الزبير بالشام، وتقوم الراية المروانية تخفق في ربوعه

ولو أن الضحاك ساعده الحظ وانتصر في مرج راهط لتغير أمرُ الخلافة، ولحيّيت للدولة الأموية في أول عهدها، وانقلبت سلسلة التاريخ الاسلامي، فرويت على غير وجهها الذى تُروى عليه اليوم

***

بعد هذه الموقعة أضحى للمسلمين خليفتان؛ أحدُهما بالحجاز، والثاني بدمشق، ولكن مروان تعاجله المنيةُ بعد قليل، فيلى الأمر من بعده ابنه عبد الملك سنة ٦٥ هـ. وكان عبد الملك حازماً

وفيه صرامةٌ ، وله عزيمةٌ ورأى سديد ، ولكنه مع هـذا كله نراه يتهيب ابنَ الزبير ؛ لما ثبت له فى قلوب الناس من المكانة ، ولأن كثرة الأقطار الاسلامية تؤيدُهُ . فكَّر عبـد الملك فى الأمر طويلاً ، ثم طفق يُعد للحرب عدَّتها ، فأخذ يحشد الجنود ، ويعرضها بنفسه ، وصمم أن يحسمَ هـذه المشكلة الخطيرة التى بينه وبين منافسه ؛ فيحسن بنا أن نتركه قليلاً يستقرّ فى منصبه الجديد ، وينظم جيوشه ، ويرَى رأيه ، لننظرَ ماذا يفعل الخليفة الآخر مع الوفود التى كانت تأتيه من أنحاء البلدان وأقاصى الأمصار ، لتُقرّ بخلافته ، وتجدّدَ بيعته ، وتطلب منه العطاء وتظهر له حسنَ استعدادها لنُصرته وتأييده ، ولنرى فى الجملة سياسته مع جنده الذين هم عماد خلافته وسندُ دعوته

جاءه مصعب أخوه بجماعة من أعيان أهل العراق ، بعد أن مهَّدها ، وملك زمامها ، وخاطبه قائلاً : «لقد جئتُك بوجوه أهل العراق ورجالاتها ، ليؤكدوا لك البيعة ، وليأخـذوا منك العطايا ! » فيدعوه حرصه أن يمنعهم العطاء ويقول لأخيه : « إنما جئتني بعبيد أهل العراق ، يستنزفون بيتَ المال ؛ لوددت أن لى بهم صرفَ الدينار بالدرهم ! ! » . وكان هذا الردّ طعنةً نجلاء أصابت قلوب أهل العراق ، فزلزلت خلافته ولما تزلْ فى مهدها ؛ وما فتىء يجرى على هذه السياسة ، سياسة الحرص والشحّ بالمال ، مع التأنيب والزجر ، وعدم التشجيع بالكلمة الطيبة ــ ولقد بالغ فى تقتيره على الجنود أيما مبالغة ، فكان أحياناً يقتصر على إطعامهم التمر ، مع التقتير فى صرفه لهم ، فانفرُّوا أنَّبهم بقوله : « أكلتم تمرى ، وعصيتم أمرى ! » حتى قال فيه شاعرُهم :

ألم تر عبد الله ، والله غالب على أمره ، يبغي الخلافة بالتمر ؟!

وكان يدعوه حرصُه أن يقول : ماذا عسى أن أنتفع بالدنيا ، وإنما بطني شبرٌ فى شبرٍ ؟ ويقول المسعودى : أظهر عبدُ الله الزهدَ وملازمةَ العبادة مع الحرص على الخلافة ، وشبر بطنه . وليس من شك فى أن سياسة التقتير التى نهجها هى سياسة عاجزة ، لا تنتج إلا الهزيمةَ وسقوطَ الدعوة ، وضياعَ الأمر ، فلا يسعُنا إلا أن نقول إن هـذا موطن ضعفٍ كبير ، ما كان ليليقَ بطالب الخلافة ، ولا سيما إذا وجد أمامه مزاحماً قوياً ، وخصماً عنيداً كعبد الملك بن مروان ! ! إذ كيف يبذل الجنودُ فى سبيله الدماء ، ثم يضنّ عليهم بالعطاء ؟ إن هى إلا الهزيمةُ الكبرى ! وإذن فقد جنى على عبد الله بخله ، حيث صرف عنه القلوب ، فتحولت الوجوه إلى الخليفة الآخر ، يجدون فيه ملكا يكثر العطايا ، ويكرم الوفود ، ولا يُعزُّ الدرهمَ والدينار ، بل يجود بالدنيا لتُقبل عليه الدنيا ؛ اتجهت قلوبُ الناس إلى عبد الملك ، وشخصت أبصارُهم إلى بريق نُضاره ، فلما أنس بهذا ، ووثق بضعف عدوّه من هـذه الناحية ، توجّه يقود جيشه الكبير إلى البصرة — وكانت لعبد الله مركز قوته ، كما كانت الحجاز موطنَ دعوته — فلاقى بها أخاه مُصعباً ، ودارت بينهما رحا الحرب ، فقُتل مصعب ، وهُزم جندُه ، واستولى عبد الملك على العراق حصن الدعوة الزبيرية . وفى الحق أن عبد الملك ما قتل مصعباً ، وإنما أرداه وهزم جيشه حرص أخيه على الدنيا ، حرصاً نفر منه القلوب ، فأسلمه أهل البصرة : وفروا إلى صفوف العدو ، فقلّ ناصرُه ، وراح ضحية التقتير وسوء التدبير

لم يبق بعد هـذا إلا أن يلتقى القرنان ويتصادم الجيشان بالحجاز . فلندع عبد الملك ينظم أمر العراق الذى دخل فى حوزته بعد النصر ، ولنترك له فرصة يجهز فيها جيشاً آخر ، تحت إمرة قائده الجبار الحجاج بن يوسف الثقفى ، ليلاقى به عبد الله فى الحجاز . لندع كل هذا جانباً لنشاهدَ موقفَ بني هاشم من خلافة ابن الزبير ، وما صنع هو معهم بالحجاز !

كان ابن عباس وابن الحنفية وغيرُهما يعلمون من قبلُ طموح عبد الله إلى الخلافة ، وينكرون عليـه فى أنفسهم ، بل كانوا يستكثرون عليه ذلك ، ويرون أنه ليس أحق منهم بالأمر (وإن كان أحقّ من مروان وابنه) وكانوا يرون أن الذى يدفعُه إلى هذا إنما هو الجشعُ والحرصُ على المظاهر الدنيوية (وقد ذكرنا حكاية البغلات الشهب عن ابن عمر وابن عباس) — فلذلك لم يبايعوه ، فحنق عليهم ، وضيق خناقهم ، حتى إنه فكر فى الخلاص منهم ، فحبسهم فى شعب عارم ، وجمع حولهم حطباً كثيراً ، وهددهم بالاحراق ، وكاد يقضى عليهم ؛ ويقال إنه ما فعل هذا إلا خوفاً من تفرق الكلمة ، واختلاف الناس ، كما فعل عمر مع على لما تأخر عن مبايعة أبى بكر ، فقد هدده كثيراً

ولقـد لجأ ابن الزبير إلى النفى عقاباً لمن تخلف عن بيعته ،

فأخرج محمد بن الحنفية من مكة والمدينة ، ونفى ابنَ عباس إلى الطائف ، وبهذا العمل العدائى مع بنىّ هاشم ، واضطهاده لهم ، ضم سبباً جديداً قوياً إلى أسباب خذلانه ، وإفلات الأمر من يده ، فكان بذلك مجانباً الحزمَ والسياسةَ الرشيدةَ

* * *

ويسيرُ الحجاج ذلك القائدُ العنيدُ إلى الحجاز ، فيستولى بعد مناوشات قليلة على جبل أبى قبيس الذى يُطلّ على مكة ثم يحاصرُ البلدَ الحرام ، فتتعطل مشاعرُ الحج ، حتى إنه هو وجنوده وقفوا بعرفات ولم يطوفوا بالبيت ذلك العام ، وطاف عبد الله ومن معه بالبيت ولم يقفوا بعرفات ؛ وطال الحصار حتى سئم أهلُ مكة ؛ ويقول الطبرى إن الحجاج حصره ثمانية شهور ، ولم تزل الحرب بينهما حتى تفرّق عنه عامةُ أصحابه ، وخرج أهل مكة إلى الحجاج بأمان ، ولم يصبر مع ابن الزبير سوى نفرٍ قليل ممن بايعوه على الموت دونه

وفى يوم عصيب ، من أيام الحصار الرهيب ، يدخل عبد الله على أمه أسماء ، فيدور بينه وبينها حوار رائع ، يعرض عليها حاله وما آل إليه أمرُ أصحابه ، ويطلب مشورتَها ، فتبذل له النصح ، وتحثه على الاستمساك بما ولاّه المسلمون ، وأن يدافع عن حقه إلى آخر قطرة من دمه ، وألاّ يقبل من عدوه خطة يصحبها الذلُّ ، وتقول له فى عبارة حماسية مؤثرة : « والله يا بنىّ لضربةُ سيفٍ فى عزّ ، خيرٌ من ضربة سوطٍ فى مذلة » وتُلهبه هذه النصيحة ، وتثير نخوتَه ، فيخرج إلى العدوّ فى قلةٍ من صحبه ، وفى كثيرٍ من جلَده وإيمانه ، وقوة عزمه ؛ وحينئذ نقرأ فى جهاده واستبساله أروعَ صفحة للبطولة الكريمة ، والدفاع عن الحقّ المهضوم ، صفحة يتجلى فيها البلاءُ الحسن ، والصبرُ الجميل والاعتمادُ على قوة اليقين ، مع ضعف العُدّة والعدد ، ووفرة العدوّ وإحاطته ، وتمكّنه من ناصية الموقف . ملك الحجاج عليه أبوابَ المسجد الحرام ، وحاصره فيه ، فبات يصلى ليلته ، ثم أغفى قليلاً ، وقام يصلى الفجر ، ولما انفتل من صلاته أخذ يستعدّ للنزال ليرى آخرَ سهم فى كنانته ، وليموت بعده شهيدَ الوفاء لمبدئه ، ثم قال لمن معه : « يا آل الزبير ! لو طبتم لى نفساً عن أنفسكم كنا أهلَ بيتٍ من العرب ! أما بعد فلا يرُعْكم وقعُ السيوف . . . غضوا الأبصار عن البارقة ، ولا يُلهينّكم السؤالُ عنى ، فلا يقولنّ أحدُكم أين عبدُ الله ! . . . ألا مَن كان سائلاً عنى فأنى فى الرعيل الأول ، احملوا على بَرَكة الله . . . »

وبعد أن بثّ الحميّةَ فى قلوب من حوله ، وألهبهم حماسة ، حمل على عدوّه بسيفين صارمَين ، يضرب بهما معاً ، فيهزم الداخلين عليه من هذا الباب ، ثم لا يلبث أن يتكاثر الهاجون على الباب الآخر ، فيصمد لهم ، حتى يولوا الأدبار ، فيوقعَ بهم ، وهو يقول : « ياله من نصرٍ ، لو كان له رجالٌ !! »

لو كان قرنى واحداً أرديتُه أوردتُه الموتَ وقد ذكيتُه !

ولم يزل يضربُ القوم بصارميه وشتت شملهم ، حتى قُذف بحجرٍ ضخم أصابه بين عينيه فخرّ صريعاً ، وتكاثر الجندُ على البطل المضرّج بدمه الحرام ، فى المسجد الحرام ، واحتزّوا رأسَه ولم يرْعَوا فيه ديناً ولا رَحماً

وكان مصرع البطل الشهيد سنة ٧٣ ﻫ بعد أن أدرك وطرَه وسلّم الناسُ عليه بالخلافة زهاءَ تسعِ سنواتٍ ، كانت كلُّها خُطباً واستعداداً ، وحرباً وجهاداً

* * *

وبعد فهذا بطل صنديد ، وخليفة شهيد ، نرى فى طلبه الخلافةَ ، وتعريضِ نفسه للمخاطر ، إبّان تلك الظروف العصيبةِ حدباً على المسلمين ، وأنفةً أن يُساموا الخسفَ من بنى أميةَ ؛ ونوعاً من التضحية فى سبيل الجماعة ، كما نلمحُ فى نفسه نزْعةً ساميةً ، وشرفاً وشجاعة ، لا نجدُها فى كثير من رجالات عصره ، فلقد كان هو رجل الوقت بلا منازع ، لم يتوقع بنو أمية الوثوب الظافر عليهم من غيره ؛ ولقد صدقت فيه فراسة معاوية

والحق أن خلال عبد الله منذ نشأته كانت ترشحه وتمده للخلافة ، ولكن لأية خلافة ؟ للخلافة المتقشفة الحريصة على أموال المسلمين أن تنفق فى غير وجهها ، لا تلك الخلافة المترفة التى تنغمس فى النعيم ، وتغمرُها أبهةُ الملك ومظاهرُ السلطان ؛ ولو لم يرْنُ عبدُ الله بطرفه إلى هذا المركز السامى ، لكان ذلك غريباً عن طبعه ، مناقضاً لنشأته ، وعلو همته وطموحه ؛ فلنسجل له ثورته المنيفة السامية على من طلبوا الملك والدنيا باسم الخلافة الاسلامية المتينة

(ميت غمر) محمد حسنى عبد الرحمن